البواعث النفسيّة لفوضى العلاقة بين اللغة والذات والوطن

سلام عبّود*

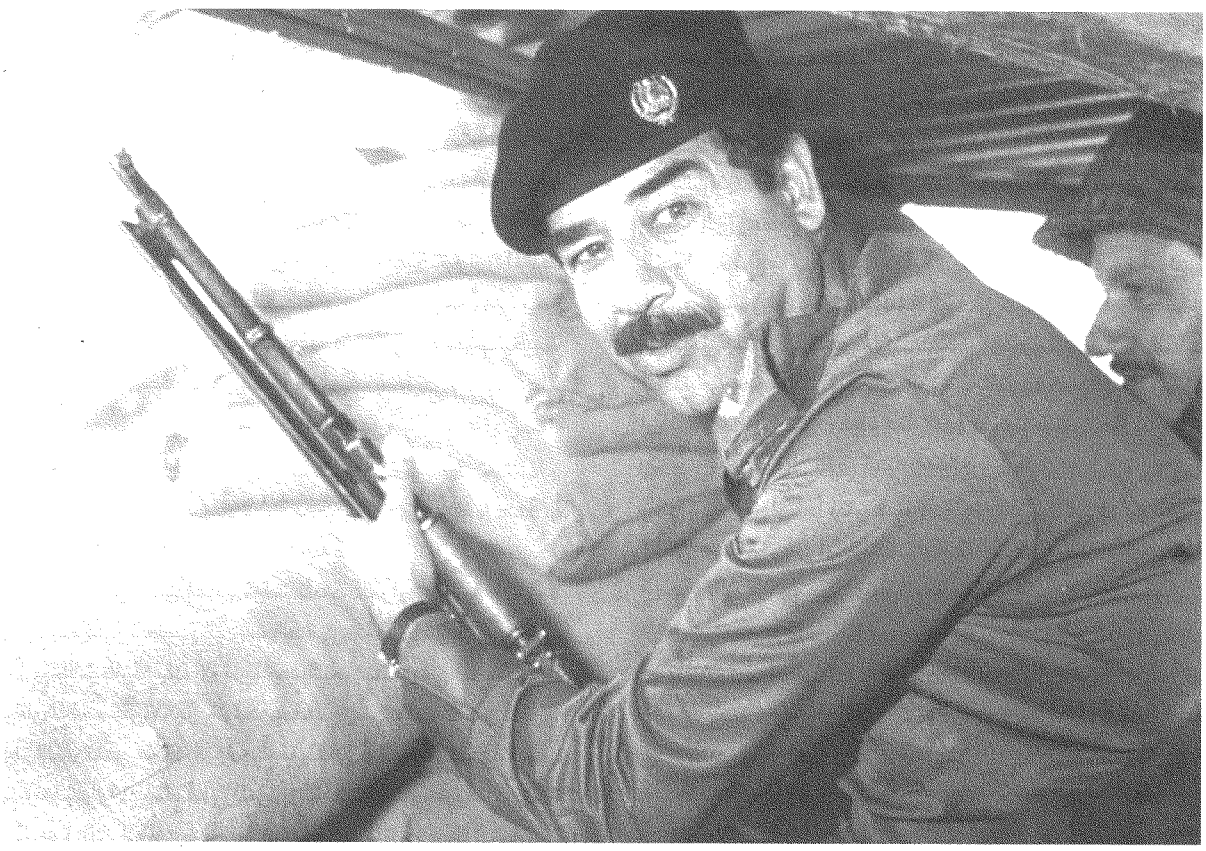

هل المجتمع العراقيّ اليوم مؤهّل لطرح الأسئلة الثقافيّة الكبرى، الوجوديّة والمصيريّة، والوصول إلى أجوبةٍ عميقة، أمْ أنّه لم يزل غارقًا في جزئيّات المشهد اليوميّ الدامي؟ هل المثقف العراقيّ مؤهّل لصياغة معادلاتٍ ثقافيّةٍ بحجم الأخطار التي يعيشها مجتمعُه؟ هل أنتج الاحتلالُ واقعَه الثقافيّ (إعلامَه، وتنظيراته، ومشاريعَه العقليّة، وقيمَه السياسيّة)؟ وكيف أثّرت الحقبةُ الراهنةُ على طرائق التعبير اللغويّ والخطاب الثقافيّ؟

* - كاتب عراقيّ

إنّ الولادة القيصريّة لنهج إسقاط السلطة بقيادة الولايات المتحدة الأميركيّة لم تجلبْ للمجتمع العراقيّ ثقافةً غريبةً في هيئة قيمٍ سياسيّةٍ وأخلاقيّةٍ فحسب، بل صنعتْ أيضًا نموذجَها الثقافيّ الخاصّ: وهو نموذجٌ تجميعيّ، مركّبٌ تركيبًا فجًّا، متعجّلاً، يضمّ في ثناياه مساوئَ الكثير من الإيديولوجيّات القائمة والمنقرضة.

لكنْ، على الرغم من هشاشة هذا النموذج ووقتيّته وشذوذه، فإنّه يستحقّ المعاينة لأنّه جزءٌ من بقايا ميْل ساد المجتمعَ العراقيَّ في فترات انكساره التاريخيّ كافةً، ولأنّ الأخطار النفسيّة والأخلاقيّة التي يُحْدثها عظيمة بيْد أنّها لا تفعل فعلها المؤكّد إلا بوجود سلطةٍ عليا مساندة: ذلك لأنّ قوة هذا التيّار لا تكمن في طاقاته الخاصّة، بل في اتّحاده بمؤسّسات العنف المرتبطة بالإرادة **الأجنبيّة** وبالتيّارات **المحلّيّة** ذاتِ المشاريع المعادية للمصالح الوطنيّة العراقيّة.

إنّ الترابط بين الظواهر السياسيّة وما يرافقها أو ينتج عنها من ميولٍ ثقافيّة لا يأخذ دائمًا طابعًا مباشرًا لأنّ الثقافة تتميّز بقدرتها العالية على التمويه والتقنّع. بيْد أنّ عنصر التكرار يؤكّد أنّ ما يحدث الآن جزءٌ من ظاهرةٍ جماعيّةٍ تتجاوز المثقفَ الفرد: إنّه تجديدٌ لدورة العنف الروحيّ التي وُلدتْ في رحم الأنظمة الاستبداديّة كافّةً، يعاد بعثُها بثوبٍ جديدٍ، ويتّم توظيفُها ثقافيًا لمصلحة مستبدٍّ جديد.

قوّتان متواجهتان

«في شارع السعدون/ يسقط وجهُ الصنم البارد/ يرشقه الصغارُ بالحجارة» (فاضل العزّاوي)

أيّة منفعةٍ نجنيها من إعادة قراءة كلمات العزّاوي المشاعة؟ مَنْ لا يَعرف حكايةَ الصنم الذي سقط في ساحة الفردوس ورَشَقَه الناسُ بالحجارة؟ بيْد أنّ مزيّة هذا النص تكمن في أنّه كُتب قبل سقوط الصنم الأكبر بأربعة عقود. وحين نقترب من التربة العراقيّة، تغدو علاقةُ اللغة بالعنف أكثرَ وضوحًا، لكنها ليست أقلّ تعقيدًا والتباسًا. ففي العراق تتواجه قوّتان معروفتان بشدّة ميْلهما إلى القسوة، وباستخدام الفظاظة نهجًا سياسيًا وأخلاقيًا: السلطات العراقيّة المتعاقبة والإدارات الأميركيّة المتعاقبة. والطرفان يستخدمان موروثَهما التاريخيَّ من العنف، بل يتبادلانه، ويوظّفانه، بتنافسٍ أو تناغمٍ خفيّ وعلنيّ، ضدّ مصلحة المجتمع العراقيّ، وضدّ المصلحة التاريخيّة الأميركيّة والإنسانيّة عامّةً. ولقد بيّنت السنواتُ المنصرمة أنّ المجتمع العراقيّ غيرُ قادرٍ بعدُ على قلب المعادلات الثقافيّة التي سادت عقودًا طويلة، ولعب فيها الإعلامُ والأدبُ والفنُّ دورًا إفساديًا من طريق تثبيت الميل العنفيّ وتقويته بدلاً من مواجهته. وتُظهر المقارنة اللغويّة التاريخيّة أنّ الكلمات التي استُخدمتْ في مرحلة الديكتاتوريّة يُعاد استخدامُها الآن بالمغزى والمحتوى نفسهما أيْ إنّ تواصلاً، في الثقافة والممارسة السياسيّة، يَستثمر ثقافةَ العنف، وما يلازمها من لغةٍ تقوم على الشحن العاطفيّ السلبيّ، لصالح مشروع العنف الدوليّ والمحليّ. نعم، إنّ العنف لم يزل يُستخدم مرجعيّةً ثقافيّةً، وأسلوبًا لإدارة الحياة، ونمطًا للعلاقات القائمة بين الأفراد والجماعات وبين مؤسّسة الحكم والمجتمع.

أوطان افتراضيّة: الوطن نحن!

كيف تُبنى الأوطانُ بالكلمات؟

حين تقوم اللغة بتقزيم صورة الوطن في عبارةٍ موجزةٍ كـ «وطن صدّام» و«عراق صدّام» على ما فعل مريدو مشروع الحرب الأميركيّة، أو حين تقوم بعملقتها مثلما فعل أدبُ حقبة صدّام بترويج فكرة «العراق العظيم» و«عراق الحضارات،» تنتفي الحاجةُ إلى وجود وطنٍ حقيقيّ. فالوطن هنا يتجاذبه قطبان متناقضان شكلاً، متشابهان جوهرًا، لا يرتبطان بواقع الحياة. ومثلُ هذا الوطن تمْكن استباحتُه والثأرُ منه مِنْ كلّ مَن هبّ ودبّ. إنّه وطنٌ زائف، صنعتْه إراداتٌ مغشوشة.

حينما انتهت الحربُ العالميّة الثانية بهزيمة النازيّة تنادى مثقفو ألمانيا إلى إعادة إحياء الثقافة، ووضعوا شعارًا أسموْه «سنة الصفر،» أيْ عام البداية التاريخيّة الجديدة لإعادة تأسيس الروح الممزّق والوطن المحطّم. أمّا في العراق، فإنّ الصفر الثقافيّ بدأ على نحو غريب، عَكَسَ حجمَ الدمار في الذات الوطنيّة، وحجمَ الاستباحات الروحيّة التي خضع لها المواطنُ. إنّ المقارنات الحسيّة مفيدةٌ هنا لأنها تعطينا صورةً عن أنفسنا، وتجيب عن السؤال الذي نجيد إهمالَه: مَنْ نحن؟

ولكي تكون المقارناتُ أكثر عيانيّةً، ندعو القارئ إلى قراءة النصّ الآتي، وسنفترض أنّ كاتبًا يابانيًا (لا عراقيًا) كتبه عشيّةَ الهجوم الأميركيّ على هيروشيما وناكازاكي (لا على بغداد): «إعصفي بهم يا أمريكا واتركيهم غبارًا عالقًا بالتاريخ. وأعيدي اليابانيين من حيث أتوْا، حيث البحارُ نسيان. دعي القنابلَ تدوِّ بين جماجمهم، والمدافعَ تثرْ. ولا تنصتي لأحد. اليابانيون يستمْنون. والشعراءُ مخانيث. وغوغاؤنا وجوهٌ لا تُرى إلا عند كلّ سوْءة. عليكِ بهم يا أمريكا. فصَلاتُهم فحيح. وقبلتُهم الخراب. إعصفي بهم يا أمريكا. وأعيدهم من حيث أتوْا، إلى الآخرة من أجل بيرل هاربر. الآن قبل الأوان.»

وهذا نصٌّ آخر لشاعرٍ سنفترض أنه ألمانيّ (لا عراقيّ)، كتبه عشيّةَ اندحار قوات هتلر (لا صدّام): «ليلة البارحة... انتابني شعورٌ بالحقد والكراهية ضدّ هتلر وزمرته بعد أن تابعتُ على الشاشات صورَ أسرى الحرب الأميركان! حاولتُ أن أسأل نفسي لماذا لم ينتبْني هذا الشعورُ وأنا أشاهد العديدَ من أبناء وطني الألمان وهم يُقتلون أو يُدفنون تحت أنقاض الصواريخ الأميركيّة؟»

(تمّت استعارةُ النصّيْن السابقيْن من مقال «العهر الأخلاقيّ والثقافيّ» لعلي رشيد وقد قمتُ بتغيير الأماكن والأسماء العراقيّة كلّها وأبدلتُها بأخرى ألمانيّةٍ ويابانيّةٍ وأميركيّةٍ، وفيتناميّةٍ فيما بعد، لأسبابٍ فنيّةٍ تهدف إلى تعميق درجة

الإحساس بالنصّ من طريق تغريبه).

وهذا نصٌّ نثريّ كتبه شاعر نفترض أنّه أميركيّ (لا عراقيّ) يصوِّر مشاهد النهب الجماعيّ: «نقلت التلفزيوناتُ الأميركيّة والأجنبيّة بصورةٍ مباشرة، وبالألوان، مشاعرَ الشعب الأميركيّ ولكنّ المراسلين لم يفوّتوا الفرصةَ أيضًا للنكاية بالشعب الأميركيّ. فهذا يقول **نهبٌ للمحلات والمتاجر**، فيما الصورة من وراء ظهره تُظهر المواطنين الأميركيين يسلبون مباني حكوميّةً بحتة.»

المجتمع العراقيّ غيرُ قادرٍ بعدُ على قلب المعادلات الثقافيّة التي سادت عقوداً طويلة، ولعب فيها الإعلامُ والأدبُ والفنُّ دوراً إفساديًا من طريق تثبيت الميل العنفيّ وتقويته.

وهذا شاعرٌ نفترض أنه مهاجر فيتناميّ (لا عراقيّ) يعيش في لندن يقول: «آن الأوانُ لكي تتزيّنَ ساحاتُ سايغون بنصب الجنود الأميركيين المحرِّرين!»

يتساءل بعضُهم: «مَنْ صنع صدّام؟». الجواب يوجد في تلك النصوص السابقة. النصّ الأول قصيدةٌ كتبها في ٢٠٠٣/٣/١٧، عشيّةَالهجوم الأميركيّ على العراق، شاعرٌ عراقيٌّ رقيقٌ وحسّاس أحبّ أن يرى وطنَه حرًا. والنصّ الثاني انطباعاتٌ عاطفيّة نثريّة، نُشرتْ في المناسبة ذاتها لشاعرٍ عراقيّ حداثيّ. أما النصّ الثالث فهو لشاعر عراقيّ من كتّاب «أمّ المعارك.» والرابع لشاعر عراقيّ مقيم في لندن يضع نفسه في صفوف الشيوعيين.

لغرض الإجابة عن السؤال القائل: من نحن، يتوجّب أن نتأمّل كيف يصف شاعرٌ عراقيٌّ منفيّ علاقتَه بوطنه، والثمنَ الذي ينبغي على الشعب تقديمُه في مذبحة «التحرير»:

«يجب اعتبارُ الجنود الأميركيين والبريطانيين الذين قُتلوا في عمليّة تحرير العراق شهداءَ الشعب العراقيّ وليس شهداء الشعب الأمريكيّ والبريطانيّ فقط... إنّ عمليّة تحرير العراق هي نعمةٌ إلهيّةٌ منّ بها اللهُ على شعبنا...» ويعلّل سببَ الأخطاء التي وقعتْ فيها القواتُ الأميركيّة، ومنها نهبُ المتحف الوطنيّ: «قال عنه بعضُ القادة الأميركيين إنّه يتعلّق بطبيعة المهمّات الحربيّة وعدم قابليّة الدبّابات الأميركيّة على المناورة في الشوارع المحليّة.» ويضيف: «لا أحد يريد الحربَ، بمن في ذلك الرئيس جورج بوش نفسُه، لكنّها عمليّة جراحيّة جريئة وخطيرة لاستئصال السرطان الصدّاميّ التي لا بدّ فيها من نزف بعض الدماء، وهو شكلٌ من أشكال دفع ثمن الحريّة [!]» (**كتابات**، ٢٠٠٣/٥/٢٣).

إذا تركنا السياسة والثقافة والحرب واتجهنا إلى الرياضة، وهي مجالٌ خالٍ من القسوة السياسيّة، نعثر على الخبر الآتي: «بعد فوز قطر على إيران، هل سيفترس أسودُ الرافديْن الذهبَ الآسيويّ؟ فهل سيجترح أسودُ الرافديْن المعجزة ويفترسون الذهبَ الكرويّ للدورة الآسيويّة الخامسة عشرة؟ ما حقّقه الأسودُ العراقيون حتى الآن من إنجازاتٍ يعجّل... التفاؤلَ بنيل الفريسة الذهبيّة» (**البديل العراقي**، ٢٠٠٦/١٢/١٤). وأمّا صحيفة **المدى** الرياضيّ (٢٠٠٧/٧/٢٢)، فتنقل الخبرَ التالي: «الأسُود تفترس الأحمرَ العليلَ وتتأهّب لموقعة بوكيت جليل... السفّاح يجمِّد الدماءَ في عروق الفيتناميين.. وفييرا ينزع أسلحة ريدل بالقطعة.» وأما مقدّم النشرة الرياضيّة، العراقيّ الجنسيّة، على قناة أم. بي. سي، مساءَ الثلاثاء ٢٠١١/١/١١، فيعلّق على خسارة المنتخب العراقيّ في كرة القدم أمام إيران قائلاً: «المفخّخات، العبوات اللاصقة، القنابل إيرانيّة الصنع، كُتب عليها صُنع في إيران، وقنبلة اليوم الكرويّة، القنبلة السلميّة، كُتب عليها أيضًا صُنع في إيران.» هكذا، وبعد أن نستبعد الجانب المسلّي في هذه الترتيب اللغويّ الحاذق، نعثر على المكوِّنات النموذجيّة للصراع السياسيّ في صيغته الثأريّة، ونعثر على شدة تأثير المحيط في المخيّلة ودوره في تطويق مسارات اللغة وشحنها وتوجيهها.

أسودٌ تفترس، ونزعُ أسلحة، وتجميدُ دماء، وموقعةٌ، وفريسةٌ، وسفّاحون، ولاصقاتٌ، وعبواتٌ ناسفة: هذه الكلمات العنيفة، التي تلتصق بالمخيّلة وتشحن طاقاتِ المتلقّي الداخليّة بالإشارات العدوانيّة، غدت أهمّ مفردات القاموس الرياضيّ، وأهمّ تعابير الفخر والمديح والذمّ الوطنيّة.

وإذا تركنا الرياضة وذهبنا إلى التربية عثرنا على ما هو أبشع. ففي كتاب القراءة المعدّل للصف الأول الابتدائيّ، **مبادئ القراءة الخلدونيّة**، أجرى المربّون تعديلاتٍ على الكتاب الموروث من الحقبة الماضية، وانتزعوا منه صور صدّام وبعض العبارات المباشرة، لكنهم لم يتنبّهوا إلى أنّهم وضعوا في صفحة التمهيد الكتابيّ ما يلخّص حقيقةَ النظام القائم وما يربطه بسلفه. فعلى الضدّ من مناهج البشريّة جمعاء، التي تبدأ فيها التمهيداتُ الكتابيّةُ بصور مشوّقةٍ وذاتِ مضمون إنسانيّ، ابتدأ الكتابُ المعدّل بصورتين: الأولى لمسدّس يطلق النار، والثانية لدبّابةٍ في وضع الهجوم، يتولّى الطفلُ فيهما مهمّة إرشاد الطلقة إلى هدفها... لكي لا تضلّ الطريق ربّما! وفي الصفحة السادسة من التمهيد يضع المؤلّفون صورة بندقيّة إلى جوار صور الديك والبطّة والهرّ والطفل والسيّارة والساعة، لأنّ البندقيّة جزءٌ ضروريٌّ من مكوِّنات البيئة العراقيّة، لا غنى عنه في قاعات الدرس نفسها! وفي الصفحة ٨٨، يُرغَم الأطفالُ على رسم صورة الجنديّ من دون ضرورةٍ تربويّةٍ أو معرفيّةٍ ملزمة. وفي الصفحة ٤٥ لم يزل أطفالُ العراق يلبسون بذلات فدائيّي صدّام بزهو وخيلاء! ويتكرّر المشهد في الصفحة ١٠٨ على نحو أوسع في نصّ «الجندي»: «أنا أحبّ الجنديّ. الجنديّ يحبّ وطنه ويدافع عنه. جيشُنا جيشُ الأمّة العربيّة. رعاك اللهُ يا جيشنا البطل.» ثم يعاد الأمرُ

ثالثة في الصفحة ١٠٩، ويصبح الجيشُ والسلاحُ موضوعًا شعريًا، بعد أن كان موضوعًا فنيًا ومادةً للرسم، ثم موضوعًا قرائيًا: «سفينتي حربيّة. سريعة قويّة. أحمي بها بِحاري. من خطر الأشرار. طيّارتي سريعة. متينة بديعة. أحمي بها سمائي. وتربتي ومائي. دبّابتي كبيرة. ونارُها كثيرة. أحمي بها حدودي. وموطنَ جدودي. ومدفعي ثقيل. ليس له مثيل فصوتُه يدوّي. يخافه عدوّي.» ومن سخريات القدر أنّ العراق لا يُطِلّ على بِحار، ولا يملك سوى شريطٍ خانقٍ من المياه الدوليّة، ولكنه محميٌّ بالسفن الحربيّة القويّة السريعة والمدافع الصوتيّة التي لا مثيلَ لها في الواقع والخيال!

أوطان فنيّة وأخرى للشماتة

حين نتحدّث عن الوطن والعنف نتذكّر سعدي يوسف، أحدَ أبرز المدافعين الصادقين عن حرمة الوطن؛ ونتوقّف عند هذا المزيج المربك: اللغة والوطن والعنف. فهل يصحّ الدفاعُ عن وطنيّة سعدي؟ ألم ينكر وطنه علنًا «حينما حمل النهر في راحته وقال: لم يعد العراقُ وطني»؟

إذا لم يعد العراق وطنك، فماذا تسمّيه إذن؟ يجيب سعدي: «[إنّه] مكانُ ميلادي الذي لم أختَرْه، وأعتبرُ الأمرَ مسألةً فنيّةً أستفيدُ منها أثناء عمليّة الكتابة، ولكنْ لم أعد أنظرُ إليه باعتباره وطنًا»؛ «حينما أتخلّى عن وطني سأسقطُه من حساباتي تمامًا وسأنظر إليه كشأنٍ عامٍّ وحسب.»

المدافعون عن سعدي يردّون قائلين على لسان محاوره محمّد شقير إنّ «كلام سعدي هنا أكثرُ إنسانيّةً من كلّ كلام آخر، وربما أكثرُ حبًا للعراق من أيّ كلام. إنه هنا يريد أن يفْصل هويّةَ الشاعر عن هويّة العراق، وهذا هو التعبيرُ المنطقيّ لحالة اليأس من الواقع غير القابل للتعايش » وهنا يردّ الفريقُ الأول التبرير المنافق لا يصنع ثقافةً حقيقيّة، مهما كان بارعًا في الاحتيال اللغويّ! أيحقّ لنا أن ننتقد الآخرين على سوء مواقفهم الوطنيّة ونمنحَ أنفسَنا حقَّ إنكار الوطن بأكمله؟ ومن جديد يجيب المدافعون عن سعدي لكنّ الشاعر سرعان ما تدارك التعبيرَ وفسّره على أنه فورةُ غضبٍ وتطرّف في الحزن. أمّا المنتقدون فيواصلون الحفر في وطن سعدي: ألا يدلّ هذا الاضطرابُ في المشاعر والمواقف على رخاوة فكرة «الوطن» في وعي أبرز المدافعين عنه؟

إنّ أخطَر ما واجهه موقفُ سعدي الوطنيّ ليس الشماتة أو التجريح، وإنما صدور هذا النقد ممّن باعوا الوطنَ بأبخس ثمن. أما الجواب على فكرة «الوطن الفنيّ،» فشديدُ الوضوح: فنحن نستطيع تأويل اللغة كما يحلو لنا، لكنّ تأويل المشاعر أمرٌ لاأخلاقيّ. نعم، هناك رخاوةٌ لدى الجميع، بمن فيهم سعدي، تصل أحيانًا حدَّ الكفر بالوطن قيمةً معنويّةً وكيانًا عيانيًا وتاريخيًا. وهذا المثال يثبّت فكرةً مؤدّاها أنّ سيادة الفكر «القوميّ» والطائفيّ و«الأمميّ» الشموليّ أضعفتْ جذوةَ الوطن في أحاسيس المواطنين كافّة، بمن فيهم مَن دافعوا عنه حدّ العبادة. ولم يكن سعدي استثناءً.

في ذروة الاقتتال الطائفيّ التكفيريّ، ذاع اسمُ كاتب عراقيّ مجهول، لَقّب نفسه بـ «شلش العراقي.» مقالاته الشعبيّة العاميّة النقديّة الساخرة صَوّرتْ تدهورَ الأوضاع العامّة بقسوة، ونقلتْ بريشة حادّة وتفصيليّة وتمزج الواقعيَّ بالغرائبيّ مشهدًا شعبيًا هجائيًا جذب الأنظارَ إليه. لكنّ الكاتب اختفى فجاة. ثم ظهر بنفس الفجاءة ليبرِّر غيابَه بالكلمات المعبِّرة الآتية: «... أنا موجود. أعيش أيّامي بعيدًا عن شيء كان اسمُه وطني... الحمد لله لقد شُفيتُ من حبّ العراق وأهل العراق... لقد أصابني اليأسُ من كلّ ما هو عراقيّ. نحن شعبٌ من البعوض لا نستحقّ أيّ حياةٍ كريمة. يضحك علينا أبناءُ الشوارع من أنصاف الإيرانيين ويسرقوننا.» ثم يختتم رسالتَه قائلاً. «أكره عراقيّتي. أكره لهجتي. أكره كلّ شيء يربطني بشيءٍ اسمُه العراق» (**كتابات**، ٢٠١١/١/٢٠).

هذه الطفرات العاطفيّة الكبيرة نموذجٌ أمثلُ لطريقة عمل المهيِّجات والمثيرات في النفس. وهذا لمثال نتاجُ عقلٍ وثقافةٍ محدّدَيْن، ونتاجُ بيئةٍ اجتماعيّةٍ يجيد صناعتَه هذا الضربُ من التطرّف العاطفيّ وتجوِّز ظهورَه وإشاعتَه. أيْ إنّنا أمام بيئة شعوريّةٍ انقلابيّة، مشحونةٍ وفاعلة. إنّ التنقّل الحادّ الدائم بين الكره والحبّ، بين الأمل الخادع واليأس المطبِق، بين الثقة المطلقة وفقدان اليقين التامّ، هو القاعدة العقليّة والنفسيّة التي تسيّر الذاتَ في علاقتها بالآخر، قبل أن ترسم علاقتها بالموضوع: الوطن. وما الانقلاباتُ في المشاعر سوى ردود أفعالٍ على تغيّر العلاقة بالآخر. إنّ العلاقات العدوانيّة، الأنانيّة، التي تربط الذاتَ بمحيطها الاجتماعيّ هي التي تصوغ للذات المضطربة طبيعةَ علاقتها بالوطن. لذلك غدا الوطنُ الضحيّة الكبرى في معادلة اختلال العلاقة بين الأنا والمجتمع.

أوطانٌ شعريّة

لماذا يحدث هذا التخلّي؟ لماذا يرتضي الأنا أن يذهب هذا المذهب المتطرّف في موضوع عميقٍ وسامٍ في قائمة مقدّساته المبدئيّة؟ إنّ الأنا عرضةٌ مستمرّةٌ للضغط الخارجيّ والداخليّ، من قِبل اللاشعور والوسط المحيط. وهذا الصراع لا يُحسم إلا من طريق وضع حلولٍ للبواعث الداخليّة بإشباعها أو تحويلها أو تلهيتها أو تخديرها أو كبتِها. إنّ قول سعدي قد يكون نابعًا حقًا من شدّة تطرّفه في حبّ وطنه، أيْ من شدّة إخلاصه لمُثله التي تربّى عليها ولكنه يجدها الآن تُنتهك ويُعْبث بها. إنّ الذات، وهي تدافع عن نفسها، تشعر في لحظات ضعفها أنّها وحيدة، متعبة، لا تستطيع إزالة الواقع الذي تكرهه، ولا المساومةَ معه، ولا نسيانَه، ولا حسمَه كموضوع يقيم علاقةً إجباريّةً مع الذات. لذلك يلجأ الأنا إلى حلولٍ تعويضيّة، نابعةٍ من لحظة يأس، تجعل الأنا يميل إلى تسويات تطمينيّة قد لا يرتضيها لنفسه في

الأحوال الطبيعيّة. إنّ إنكار انتساب الأنا إلى العراق لا يعني سوى أنّ الأنا يريد التخلصّ التامّ من «الموضوع» كلّه، بثقله الماديّ وبالأحاسيس والقيم المرتبطة به، أيْ يريد صدّ التأثيرات غير القابلة للحلّ أو الحمل إلى خارج الذات، من طريق إلغاء وجود مسبّباتها الماديّة. مثلُ هذا الإلغاء قام به الشيوعيون العراقيون أيضًا حينما واجهوا فضيحةَ المشاركة في حكومةٍ يديرها الاحتلالُ. يقول لبيد عباوي، نائبُ وزير الخارجية العراقيّ: «العراق ليس بلدًا محتلاً»! وهذا التعبير ليس وصفًا سياسيًا بقدر ما هو بوحٌ نفسيّ يراد به جعلُ النضال باطلاً، سواء كان سلميًا أو مسلحًا، وإقفالُ باب الجدل. بهذه الطريقة البسيطة والحاسمة والفعّالة تقوم الذاتُ بـ «تصحيح» الواقع الذي لا تستطيع تغييرَه أو مواجهتَه، وهي بذلك تقوم بتضليل نفسها من دون أن تفكّر في العواقب.

سيادة الفكر «القوميّ» والطائفيّ و«الأمميّ» الشموليّ أضعفتْ جذوةَ الوطن في أحاسيس المواطنين كافّة، بمن فيهم مَن دافعوا عنه حدّ العبادة.

يقول فرويد في كتابه **قلق في الحضارة**: «لمّا كان الواقعُ يجعل حياتنا مستحيلة لا تطاق، فلا بدّ من قطع كلّ صلةٍ لنا به... إنّ الناسك يدير ظهره لهذه الدنيا ولا يريد معها تعاملاً.» وعليه، فإنّ إنهاءَ «الموضوع» بإلغاء وجود الواقع هو الحلُّ الأنجعُ والأسرعُ للذات العاجزة. وبإلغاء الانتماء إلى العراق، يتحلّل الأنا من كراهية وجود المحتلّ، ومن كراهية تلويث المفاهيم المرتبطة بمقاومة المحتلّ، وصولاً إلى التحرر التامّ من الموضوع (الصراع النفسيّ). هذا الحلّ التخديريّ وسيلةٌ ماكرةٌ من وسائل الأنا حين يدافع عن توازنه المفقود في لحظة اضطراب. ولكنْ سرعان ما يتنبّه الأنا السويّ إلى هفواته قبل أن تغدو عثراتُ الاستقبال عادة مستحكمة، وقبل أن يغدو هذا التصعيدُ الخاطئ عنصرًا سلوكيًا ثابتًا، أيْ حالة متمكّنة ومرضًا.

سنتوقّف عند مثال آخر أكثر تعقيدًا، عند أديبٍ محسوبٍ على ثقافة العراقيين لبعض الانتماء الوراثيّ والولاء العاطفيّ والأخلاقيّ الذي يؤهّله لأن يكون واحدًا منهم. مثالنا نجده في جواب عبّاس بيضون على سؤال عن الاحتلال الأميركيّ للعراق، يطرحه الشاعر أحمد عبد الحسين في جريدة **الصباح** الحكوميّة العراقيّة (٢٠١٠/٩/١٥). يجيب بيضون أجابةً تنويميّة. «اخترتُ سقوطَ صدّام ولم أكن مسؤولاً عن طريقة سقوطه... لم أكن أنا الذي جرّ الاحتلال، ولم يستشرْني أحد. كانت هذه مسألةً خارج اختياري.» وهذا صحيح تمامًا: فجورج بوش الابن والأب لم يستشيرا أحدًا حين قرّرا غزوَ العراق مرتين خلال عقدٍ واحد. ولكنْ هل يجوز لمثقفٍ عراقيّ أن يقدّم الجوابَ ذاته لو سُئل عن الاحتلال الإسرائيليّ لجنوب لبنان؟! من الواضح أنّ الاسئلة التي تتناول قضايا الموت والحياة، والحريّة والاستعباد، والحقّ وانتهاك القانون، لا يمْكن القفزُ عليها أو الهروبُ من نصالها الحادّة، لأنها قضايا إنسانيّة مشتركة، لا قضيّة خاصة بهذا الأنا أو ذاك.

إنّ هذا الاختلال في اللغة، وما يرافقه من اختلالٍ في المنطق، وما يصاحبهما من اختلالاتٍ عظيمةٍ في بنية الشخصيّة نفسها، انعكاسٌ صادقٌ لاختلال العلاقة بين الواقع والذات، بين مفردات اللغة وحاملها. إنّه التداخل الكبير الذي صنعتْه فوضى الحريّة الأميركيّة، فوضى الواقع الذي انعكس بشكلٍ سلبيٍّ على نفوس الجميع، فزلزل الأرضَ تحت أقدامهم، وحطّم منطق اللغة المعتادة التي تريد أن تتعايش بطريقةٍ تضليليّةٍ مع واقعٍ يخالف اقتناعات الذات (المعلنة في الأقل) ويتناقض مع قوانينَ الحريّة المعروفة للجميع.

إنّ الآخر يرانا بعيوننا، ويرى وطننا من خلال الصورة التي نرسمها لأنفسنا، ويتعامل معنا على ضوء الصور التي نعلن بها عن مشاعرنا وأفكارنا. فالوطن هو نحن، بخيرنا وشرّنا. ونحن هم الوطن، أجحيمًا كان أمْ فردوسًا.

السويد